ثقافة الحوار والتعايش المشترك بين النصارى والمسلمين

د/ جوليو تشيبلونه G. Cipollone(*)
ترجمة: د/ عبد الفتاح حسن عبد الفتاح(**)

مقدمة:

إن القراءة الفاحصة لمجريات الأحداث المعاصرة تقودنا وتدفعنا دفعاً إلى لتأمل فى الأسباب العميقة التى تغذى هذه الأحداث وتقف وراءها .

وأحد الأسباب ذات الثقل الكبير سبب ثقافى يرجع إلى رؤية الآخر الذى لا ينتمى إلى مجموعتك . ويحظى هذا السبب بقوة دفع ودعم يستمدها من الإرث التاريخى، فالأحداث التاريخية تعج بالأسباب والمبررات التى تهتف بنا لنعيش فى سلام ووئام، أو لنعيش فى حروب واستنزاف ينهشنا الخوف والتوجس .

إن أبواق السلام والتعايش السلمى، أو العداءات وسوء النوايا التى تؤدى إلى مزيد من والكراهية، تتمثل فى وسائل الإعلام . فكثيراً ما تبث برامج عنف ومشاحنات تحظى بقبول مجموعات ضيقة الأفق فى بقاع مختلفة من العالم، فتثير بذلك الرعب وتصبح عدوانية .

بيد أن الإرث التاريخى يحمل فى طياته أحداث سلام إلى جانب الحروب، ومن ثم فإن التاريخ يمكن قراءته بوصفه ملهماً للحياة أو ملهماً للموت . ومما يطمئن النفس ويبعث على الأمل أن فترة الحروب الصليبية والجهاد الصغير كانت مليئة بتجارب ناصعة جلية للتسامح وللتعايش السلمى . فكانت تمتزج معاً أمثلة للتعايش مع الآخر وللنفور منه، وأدوات للسلام مثل المحراث والمنجل وغير ذلك من أدوات البناء من ناحية، مع مخزون من الأسلحة الجديدة ذات القدرة التدميرية الهائلة من ناحية أخرى .

(*) أستاذ بالجامعة البابوية الجريجورية بروما

(**) مدرس الأدب الإيطالى - كلية الألسن - جامعة عين شمس، وعضو مجلس الشعب المصرى.

ألقيت الخطوط العامة لهذا المقال فى مؤتمر "الإسلام والمسيحية معا لبناء الحياة" بتونس فى الفترة من ١٧-٢٠ فبراير ٢٠٠٤م. وقد نظم هذا المؤتمر الدولى جامعة الزيتونة، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ومنبر بن على لحوار الأديان والحضارات.

إن هذا المقال يستند إلى قراءة وإلى تصنيف موضوعى لأحداث تعكس التسامح والتعايش، وهذه الأحداث منثورة فى قرابة أربعين ألف سجل من الوثائق البابوية (مابين القرنين ١١ و ١٣ الميلاديين / الخامس والسابع الهجريين)، ويستند كذلك إلى المراسلات المباشرة للأمراء المسلمين، وغير المباشرة المستقاة من ردود البابوات أو من إحجامهم عن الرد. وليس من نافلة القول أن نذكر بأن شخصية البابا ودوره لا مثيل لهما خارج العالم المسيحى.

إن المؤرخ بوصفه ينقل الأحداث ويرويها له ثقافته وشخصيته اللتان لا يمكن إغفالهما، وإن كان يجدر به أن يكون أكثر حرية بقدر المستطاع فى معرفته الذاتية، وأن يظهر نوايا سلام بناءة.

وقد نوه سيسيرون إلى وظيفة التاريخ كملهم للحياة مؤكداً أنه بوصفه نور الحقيقة، يجب أن يكون بسيطاً، وحقيقياً، ونافعاً، ونموذجاً يحتذى.

إن القصد من وراء هذا المقال هو التقدمة لما سينشر فى ذلك المجلد حول الإرث الثقافى لمفاهيم وتطبيقات التسامح بين المسيحية والإسلام فى العصر الذى يطلق عليه المسيحيون : " العصر الوسيط"، والذى يتواكب مع عصر ازدهار الثقافة الإسلامية، قبل أن تدخل هى الأخرى فى عصرها الوسيط . وستتم طباعة هذا المجلد باللغتين الإيطالية والعربية معاً، تحت إشراف الجامعة البابوية الجريجورية بروما وجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة.

١- تقارب جديد مع التاريخ وعلم كتابة التاريخ

يجدر بنا فى هذا المقام أن نبرز باختصار ما نقله التاريخ المروى والمكتوب، وأن

نلمح إلى ما يعرف بمدارس التاريخ، مع التركيز على العالمين الإسلامى والمسيحى. وفى هذا الشأن يبرز أمر له أهميته ألا وهو شخصية المؤرخ ومدى حريته ونواياه، وما إذا كان ينقل الحدث التاريخى بقصد الإبقاء على نار البغضاء والعداء متأججة بسبب الخصوصيات الدينية، أو السياسة أو العرقية، أو كانت نيته نقل الأحداث بقصد البناء لا الهدم.

إنه ليس مصادفة أن يوظف جورج بوش وأسامة بن لادن مع آخرين لفظة "حرب صليبية" فى اللغة المعاصرة بمعنى "حشد قوات ضد".

إن التاريخ يعد بمثابة وسيلة وفن لنقل ما وعته الذاكرة من خلال الكتابة على أسس موضوعية محددة . ويمكننا أن نذكر، كنبذة، المبادئ الموضوعية التى تعكس فيما بعد وظيفة الرواية والحدث المروى فى الحقبة التى تعنينا لنحدد خطاً موازياً مع الأسس الموضوعية المعاصرة، سواء فى العالم الغربى أم فى العالم الإسلامى بتقاليده الأصيلة.

ولا يغيب عنا فى هذا الخصوص وجود مدارس متنوعة "للتأريخ" تقتفى أثر رؤى ثقافة قومية راسخة، ورؤى مؤرخين يشار إليهم بالبنان، كونوا فيما بعد إتجاهاً فى كتابة التاريخ. وقد شهدت الحقبة التى نعيشها تغيرات متعاقبة على مدى دهور، من التاريخ الدورى الحولى للكتاب القدماء (شعوب وحضارات تولد، ثم تتطور، ثم تموت)، إلى التاريخ المستمر المطرد للمؤرخين النصارى، الذى يتجسد فيه تعاقب الأحداث التاريخية فى وقت واحد، ومن بدء الخليقة حتى فناء العالم . فالتاريخ يعد على أكثر تقدير قصة دون تفسيرات وشروح أخرى .

أما التميز والتفرد فيكمن فى الشرح المتكرر والشائع الذى يوجد فى كتابات وخطابات ومراسلات البابوات، كما هو الحال لدى المؤرخين الذين كتبوا عن الحروب الصليبية حيث كانت الانتصارات تفسر بوصفها "عون إلهى" وتفسر الهزائم والإخفاقات "بسبب الخطايا وجحود الناس وكفرانهم لأنعم الله. ولا يبتعد عماد الدين نفسه عن هذه التفسيرات فى تحليله لأحداث الحرب بين النصارى والمسلمين .

أما اليوم فإن مناهج التأريخ المختلفة توزن دائماً وفقًا لما يوجبه المنهج العلمى المعاصر والرؤية الجديدة للعالم التى تختلف عن "العالم الخاص" ومن ثم فإن الرؤى العتيقة والتقليدية فى كتابة التاريخ تتميز بإعلاء نبرة المديح والإطراء والميثولوجيا التى تعج بها كتب التاريخ المسيحى والإسلامى، وقد بدأت تمحص وتنقى وتخضع لإعادة النظر، بعد قراءة جديدة تثمر "تاريخاً جديداً".

إن الرؤية الجديدة للإنسانية وللعالم، هى رؤية كلية شاملة وليست متجزئة، تقود إلى أن نسأل أنفسنا سؤالاً منطقياً عما يقوله أو يكتبه الآخرون عنا، وإن إعلاء شأن العالمية على الذاتية يوسع آفاق الرؤية ويقلل إلى أدنى حد الفجوة بيننا وبين الآخرين، أى بين "الداخل والخارج" فلنكتب معاً لنتمو معاً، وستكون الثمرة الأولى لذلك أفقاً مفتوحاً لكتابة تاريخ جديد وتجاوز التاريخ الذى يكتب من جانب واحد، الأمر الذى يتيح الفرصة للإنتقال من تاريخ ميثولوجى مديحى إلى تاريخ بناء خال من التناقضات. إننا نعتقد أنه من الأهمية بمكان التعمق فى قراءة التاريخ بطريقة منهجية، وسماع الجرس الآخر، أى صوت الآخر، لكى " نعيد القراءة معاً " ونعيد كتابة التاريخ الجديد معاً وغايتنا أن نكون بناة سلام.

ونحيى ونقدر فى هذا الخصوص الجهود وبرامج التعاون التى تضطلع بها وتشرف عليها جامعات معينة ذات ثقافة غربية مسيحية، وكذلك جامعات إسلامية تعنى بإعادة قراءة وكتابة التاريخ لاستشراف مستقبل من التعايش .

٢-جذور التعايش: المساواة بين البشر، الإيمان والدين، العالمية والخصوصية

إننا عندما نكتب عن جذور التعايش، فإننا نكتب عن التسامح بوصفه اللبنة الأولى وحجر الزاوية لهذا التقارب والتوحد والعيش معاً .

وتجدر الإشارة هنا إلى جانب أنثروبولوجى ألا وهو الضعف البشرى الذى ينتج عنه عدم التسامح، حتى بين الرجل والمرأة اللذين يربطهما رباط الزوجية. ومن ثم

يحسن بنا ونحن نحاول جاهدين ترسيخ التعايش، ألا نغفل الجانب الأنثروبولوجي. وسيكون الأمر ذا بال أكثر وأكثر إذا ما قرأنا صفحات من تاريخ التعايش بين النصارى والمسلمين، لأن تاريخ التسامح بين المسيحية والإسلام هو بمثابة تاريخ العلاقات التي وضعت الأساس المتين للتعايش السلمي بين النصارى والمسلمين.

ونجد أن لفظة التسامح نفسها يشتق منها مدلول ثقافي غاية في الأهمية، ذلك أن الفعل "تسامح" في اللغة الأوربية يعني تَحَمُّل أو حمل عبء عن آخرين، والفعل ذاته يعني كذلك في اللغة العربية قدم تنازلات. وما يعنينا في دراستنا هذه أنه قبل العصر الحديث كان للتسامح معان عميقة في الزمن الماضي من خلال أعمال سباستيان كاستليون S. Castel-lion (1515- 1563)، وأعمال جان بودان J. Bodin - 1596م).

وقد انتقد المتصوفة في العالم القديم مفهوم الحضارة والتمييز التقليدي بين الإغريق والبربر . وصولاً إلى الاعتراف والإقرار برؤية مدرسة الفيلسوف الإغريقي زينون Zenone التي تقوم على المساواة الطبيعية بين البشر جميعاً أحراراً وعبيداً. وفي العهد المسيحي أصبحت الإشارة إلى المساواة بين كل البشر بوصفهم أبناء الله الخالق، وهو حب مجسد يشترك فيه جميع الناس، باعتباره إرثاً ثقافياً .

وقد أسهم في اتساع دلالات التسامح قديماً، مقارنة بدلالاته في العصر الحديث، عوامل مختلفة مثل الاتصال المباشر بالحضارات غير الأوربية من خلال الحروب الصليبية، وكذلك الكشوف الجغرافية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر والتي وضعت أساس الاهتمام بالثقافة الأجنبية أو البدائية، ومن ثم بدأت ترسخ أقدام ثقافة جديدة إنسانية أكثر من كونها لاهوتية، وقد ترتب على ذلك علمنه السياسة والأخلاق ونزع القدسية عنهما . وتلى ذلك استنكار ورفض الاضطهاد الفكري الذي كان يتم من خلال الإيذاء البدني بواسطة محاكم التفتيش والتعذيب والمحارق. وصحب ذلك الاستنكار قناعة تامة بضرورة وضع حد للحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، تلك الحروب التي سفكت الدماء أنهاراً في أوربا في أعقاب حركة الإصلاح، وكل ذلك كان بمثابة القاعدة التي ستقوم عليها إعادة صياغة

رؤية الإنسان الحر أكثر من الإنسان المتدين.

إن التاريخ القريب يقدم لنا جون لوك وفولتير بوصفهما أصحاب باع طويل فيما يتعلق بمسألة التسامح، ذلك الموضوع الذى صار فى تطور دائم على المستوى النظرى، غير أن الإنسانية لا تزال فى بدايات طريق التسامح العملى الذى يتعلق بجوهر الموضوع وليس بشكله.

وقد كتب ك . بوبر (K. Popper - 1994)حول "التسامح والمسئولية الفكرية" وأكد على ضرورة التسامح باعتباره شرطاً لا غنى عنه يسبق التعرف على الآخر، وما يستتبع هذا التعرف من ثراء متبادل، إذ أن التقدم العلمى يتيح إمكانية النقد والمقارنة باستمرار .

إن توضيح مفاهيم الإيمان والدين يساعد بلا شك على الوضوح والشفافية، وعلى وضع سلسلة من الأسس للتعايش السلمى، إذ إن الإيمان يدخل الإنسان فى علاقة بلا حدود مع الإنسانية جمعاء، بينما يحمل الدين فى طياته عنصراً بناءاً هو عنصر التميز والخصوصية الثقافية بحدودها وأطرها التى يصعب تذويبها وإقامة التماثل بينها. فهناك عشرة آلاف نوع من الثقافات فى العالم، لا يمكن تماثلها أو تضييق الفجوة بينها من خلال عملية العولمة فقط .

إن المبادئ المثالية حول "الانفتاح على العالم" بالنسبة للنصارى والمسلمين مستوحاة من التوراة والإنجيل والقرآن.

فالاعتقاد الراسخ بأن الله تعالى يحب التسامح، وأن عدم التسامح هو أمر بشرى محض، يعد بمثابة الجذر العالمى الحقيقى للتعايش السلمى بين البشر.

وكما ظهر فى مناسبات كثيرة، لا يفوتنا أن نؤكد على حقيقة يمكن استخلاصها من بعض الأسئلة المستفزة أحياناً مثل : ما الفرق بين الأوربى المسيحى الذى يقتل وبين المسلم الذى يقتل ؟

إنه يتعين علينا أن نوقن بأن كليهما قاتل دون مثقال ذرة من شك . وبالمثل لو تعين على نصرانى أو مسلم أن يختارا صديقاً حميماً من بين أناس خائنين ينتمون إلى نفس الديانة، وأناس أمناء ينتمون إلى ديانة مختلفة فمن يختار ؟

إن العقل الراجح سيختار الشخص الأمين كصديق بلا شك، لأن الحس الإنسانى الصحيح، وليس العارى عن التفكير المنطقى والبعيد عن الواقع، يتفق على أن الأشخاص الجادين الموثوق بهم يتميزون من خلال الأعمال التى يقومون بها أكثر من تميزهم من خلال أفكارهم .

فالطيبون لا يوجدون بجمعهم فى ناحية، والأشرار كلهم فى الناحية الأخرى، إذ أن الأخيار والأشرار منتشرون فى مختلف النواحى .

إن التاريخ ينقل إلينا مواقف تهتف فى وجدان كل المؤمنين بأن الإنسان لا ينبغى أن يسفك دمه أو يستعبد. ولدينا من واقع فلسفة "زينون" مواقف مطمئنة إلى الإيمان بإمكانية التعايش . وقد تأكد ذلك لاحقاً من خلال طريق التنسك والزهد، مثل فالدو Valdoوفرنتشسكو دى أسيزى F.d' Assisi، ومن جانب المسلمين: الجيلانى، وابن العربى، وجلال الدين الرومى الذين سلكوا طريق العمل لخير الإنسانية، وقد سلكه قبلهمُ جوفانى دى ماتا G.de Matha لصالح النصارى والمسلمين على السواء . يظل أولئك يمثلون نماذج ناصعة يمكن أن يحتذى بها صانعو السلام فى عصرنا الحاضر .

٣- الصالحون بين الأمم مثل الورود تحت الصخور، ومثل النباتات فى شقوق الجدران

نود أن نشير إلى القيمة العظيمة للمراسلات التى تمت بين القيادات الدينية السامقة للنصارى والمسلمين، مقارنة بغيرها من أنواع الوثائق . فبقراءتنا ومطالعتنا لقرابة أربعين ألف سجل تمثل مكاتبات البابوات على مدى مائتين وخمسين عاماً من فترة البابوية، وقعنا على مواقف غير عادية تعكس أرضية ثقافية مذهلة للتسامح والتعايش، مذهلة مثل الورود تحت الصخور، ومثل النباتات فى شقوق الجدران، وهى نادرة بقدر ما هى

الإنسانية الشريرة.

وقد تواكب علم الأخلاق العالمى الكونى من فلسفة زينون مع الحقبة الرومانية وكان أثره ظهور التزام سياسى واجتماعى فعال يبعد عن الرغبات الطائفية، وعن الظلم والعنف، وقد تجسد هذا النموذج فى الإمبراطور ماركو أوريليو M. Aurelio بصورة واضحة ومتميزة.

وبعد تحقق المساواة، أصبح الوصول إلى مفهوم علمى للاختلاف المبنى على الندية أكثر سهولة فى معرض الحديث عن وجود أشياء طيبة بين البشر تستحق التبادل : الذكورة والأنوثة، الخدمات فى مجال العمل، خدمات تنظيم المجتمع، ومن ثم تحققت المنافع بصورة فعالة فى المدينة الإغريقية القومية من خلال تبادل الخدمات بين المهن المختلفة.

ولا يخفى على أحد الجانب الثقافى الخاص بهذا الوحى أو ذاك ، سواء فى العهد القديم، أو العهد الجديد، أو افى لقرآن. إن التعمق فى فهم النصوص الإلهية لن يمس المبدأ الأساسى وهو أن الله يحب التسامح وأن عدم التسامح هو أمر بشرى محض.

فبعد مرور ألفين وخمس من السنين على ميلاد السيد المسيح -عليه السلام-، وألف وأربعمائة وست وعشرين عاماً على هجرة محمد ﷺ نستطيع القول بأنه آن الآوان لإعادة قراءة الكتب المقدسة، بل وإعادة قراءتها معاً.

وعلى أية حال، إذا ما أعرضنا عن الاستشهادات الكثيرة نجد أن الكتب السماوية تحتوى على بعض الثوابت التى تخاطب المؤمن بوجود الله، بغض النظر عن جماعته الدينية . فأطراف التجربة الإنسانية تلتقى وتتماشى مع كل الكتب، فكل كائن بشرى هو خليقة الله، وكل إنسان تتوازن حياته على أساس أعمال العدل، كما أن الكتب السماوية تدعونا إلى التنافس فى عمل الخيرات، وخلاصة القول يجب أن نرسخ المساواة والكرامة وكذلك العدالة بين المنتمين إلى الديانات المختلفة، وأن تكون أعمال الإنسان الواقعية هى معيار تقييمه . فالصالحون منتشرون فى الأمم، وليسوا حكراً على هذه الفئة أو

تلك من أتباع الديانات، وهذه الحقيقة تعد منطلقاً غاية فى الأهمية لتعايش متناه

إن تأكيد البابا وقوله " ولو بطريقة أخرى " يعد أساساً راسخاً للتعايش، لاسيما أن هذا التأكيد جاء قبل عشرين عاماً من انعقاد مجمع كليرمنت الشهير الذى تبلورت فيه أفكار وأيدلوجية الحرب الصليبية .

إن إقرار البابا "نحن نعبد نفس الإله وإن كان بطريقة أخرى" يكتسب أهمية خاصة لعدة أسباب، وهو ما سيتم معالجته وبحثه فى المجلد الذى سبق الإشارة إليه .

ويمكننا أن نجزم بأن كلمات البابا المعبرة توضح تعددية طرق التقرب إلى الله، انطلاقاً من مبدأ أنه إله واحد . وهذا الإله الواحد الخالق يظل دائماً الرازق لكل مخلوقاته، دون تمييز أو استبعاد لأحد منها.

وفيما يتعلق بالتجربة العملية لهذه الرؤية العالمية التى تسوى بين جميع البشر أمام الإله نفسه، نلاحظ أنه يزداد لدى المؤمنين من النصارى والمسلمين على السواء استهجان ورفض العنف والحروب، وذلك يعنى احترام من ينتمى لديانة أخرى دون النظر إليه كعدو خطر .

وزيادة على ذلك، فإن النتائج المأساوية للحروب التى أودت بآلاف من الضحايا أسهمت فى فتور "التطوع الأعمى" حتى وإن دعا إليه من هم على رأس المراكز الدينية، إذ إنه من المسلم به أنه لا فائز فى الحرب التى تكلف ثمناً فادحاً من القتلى والأسرى، وأن القتلى يعتبرون شهداء فى نظر طائفة ومجرمين فى نظر الطائفة الأخرى .

والمسلمون أنفسهم يجعلون من النصارى مناهضين للحرب بإيمانهم بالمسيح عليه السلام الذى واجه بالكلمة - وليس بالسلاح - كل أشكال العنف . وسيضرب بعض رجال اللاهوت النصارى المثل بالحواريين الذين فتحوا العالم دون سلاح، وهذا يؤكد أن الأسلحة لم تسهم أبداً فى توسع المسيحية، وأن القهر لم يحمل أحداً على اعتناقها.

وقد بدأ الترويج لتجربة أعمال الخير "خارج المجموعة" لإظهار قبح الظلم

الموجود داخل المجموعة التى ينتمى إليها الإنسان. وقد أسهم الاتصال المباشر عن قرب مع العدو - حتى وإن كان من خلال الحرب - فى رؤية هذا العدو كشبيه ومثيل لنا له نفس المميزات ونفس العيوب، وليس كهمجى وطاغية. وهناك إشارات إلى حكم ومواقف نبيلة نسبت إلى كافرين، وهى "تعلم" النصارى العدل، وكذلك إشارات إلى الجنس البشرى تقوى القناعة بأن الناس سواسية فى كرامتهم.

وقد أسلفنا القول بأن المتصوفة والقديسين والشعراء والأنبياء يرفضون التطوع للحرب لأن لديهم قناعتين : الأولى : عدم جدوى العنف بين البشر، والأخرى هى القناعة بأن الله واحد وأن الحب العالمى الذى لا يعرف الحدود معيار مهم "لمعرفة الله".

وأظن أن المؤرخين المسلمين يمكنهم أن يجلوا مواقف مشابهة فى الثقافة الإسلامية مستخلصة من مكاتبات الخلفاء والسلاطين و "أمراء المؤمنين" وبذلك يمكننا توسيع مساحة النماذج التى تحدثنا عن الورود التى تنبت بين الصخور والنباتات التى تولد فى شقوق الجدران، وذلك على أساس مبدأ " وإن كان بصورة أخرى" . هم قلة نعم، ولكنها القلة التى ينعقد عليها الأمل فى تعايش عالمى أكثر عمقاً .

وهناك خط مواز مؤصل شرعاً هو "لا إكراه فى الدين" مع الأصل الإيجابى وهو "ضرورة أن يكون الإنسان مؤمناً" كل حسب ديانته التى يعيشها داخل منظومة الثقافة الخاصة به، إذ أنه من الصعب بمكان إفتراض أن يكون الإنسان البعيد بالكلية عن دينه قادراً على أن يسلك طريق التعايش العميق والدائم والعالمى .

وهناك أمر يجب أن يملأنا بالتواضع وكذلك بالتقدير لمن هو ليس مثلنا، فلو ولد أحد مسلمى مكة بروما مثلاً لربما كان نصرانياً لاتينيا، كاثوليكياً بطبيعة الحال. وبالمثل لو ولد كاثوليكى من روما بمكة لربما صار مسلماً؛ ولذا قد يكون من السفه أن نظن أن الأخيار يكونون دائماً فى ناحية، والأشرار فى الناحية الأخرى .

٤-نصارى أسوأ من المسلمين، ومسلمون أسوأ من النصارى

إن القدرة على نقد الذات هى أسمى آيات النضج البشرى والذكاء المنفتح على

الآخرين والذى يسمح بالنمـاء والثراء. فمن يرغب فى أن يكون صادقـاً مع نفسه يجب أن يتغيـر وأن يكون دائم المحاسبة لنفسـه ليقومهـا ويصوبها على أفضل مثـال . ومقارنة النفس بالآخرين تتيح الفرصة وتفتح الباب لثراء غير عادى ينمى الفرد والجماعة، وكما هو معلوم فإن الثراء الناتج عن التغيير، من خلال اختلاط الأجناس يؤدى إلى تجديد الدم البشرى، أما المجمـوعة المحدودة والمنغلقة على نفسها حتى وإن كـانت فى أسرة فرعونية تنتج وحوشاً لأنها ليست منفتحة على الآخر .

ماذا نقول نحن عن أنـفسنا وماذا يقول الآخرون عنا ؟ يبـدو جلياً الدور المهم الذى تلعبـه المعرفة الذاتيـة ومعرفـة الآخرين فى سبيل التطور والتحسين، ولكن زيادة على المعـرفة بالذات تبـرز أهميـة أن نسأل أنفسنا كيف يرانا الآخـرون، إذ إنه لكى نصل إلى رؤية كاملة عن أنفسنا يجب أن يتـدخل فى تكوين هذه الرؤية عنصر خارجى عنا . إذ إن الرؤية من الخارج هى رؤية حرة وغير محدودة وتسهم فى تقييمنا لأنفسنا، ولذلك يجب أن نخرج عن المجمـوعة لنقرأ المجمـوعة ونقيمهـا ونساعد على نموها . إن نقد الـقائمين على الكنيسة أو المسـجد أو نقد النصرانية أو الأمة المسلمة لا يجـب أن يفهم بصورة آلية أنه نقد للمسيح أو نقد للقرآن فإن ذلك يعد خطأ فادحاً .

بعد اطلاعى على آلاف من خطابات البابوات، وجدت نفـسى سعيداً ومذهولاً فى الوقت ذاته، وأنا أرى شجاعة البابوات وهم يصفـون النصارى مرات كثيرة بأنهم "أسوأ من الكفار إلى غير ذلك من المقارنات التى تشين النصارى وهم رعايا البابوات وينتمون إلى نفس الديانة، ومن ثم فـقـد نعـت أناس ينتـمـون إلى نفس الديانـة بأنهم أسـوأ من الأعداء .

إن النصارى الذين وصفوا بأنهم أسوأ من غير النصارى أو من المسلمين، هم إما أفراد وإما جماعات، وتتدرج الصفات التى وصموا بها من التعميم، مثل : غير مؤمنين، مخادعين فجـار، ناكرين للجميل، إلى صفات وردت فى التوراة، مثل : أبناء "بليال" Belial، جنود إبليس، أعداء الكنيسة أو النصارى المارقون.ومن الممكن أن يكون أمراء المسلمـين أيضـاً قد وصـفوا المـسلمين بأنهـم أسوأ من النصـارى، إذ أنه من المنطقى أن

الأخيار لا يوجدون جميعاً فى ناحية والأشرار جميعاً فى ناحية أخرى.

٥- نموذج ومشروع للتعايش والخدمة الإنسانية المتبادلة.

إن الخروج من مناخ المقارنة على صعيد القوة والسيادة، والدخول فى مجال الخدمة والتعاون، يضع أساسا لمشروع يمكن تنفيذه لتحقيق التعايش. واليوم تعتبر تجربة الخدمات المتبادلة الواقعية والملموسة أحد المظاهر الناصعة لثقافة التعايش، خصوصاً فى حالة الضرورة وفى مجال تخفيف المعاناة . وفضلاً عن الخدمات الجديرة بالثناء عند المقارنة المنفتحة والمتجردة، فإن التبادل الثقافى بما فيه من مخاطر فى مجال الفنون والرياضة، إضافة إلى المجالات التجارية يوجد فيه تخفيف للآلام وتضميد الجراح، خصوصاً آلام وجراح الحروب.

وإذا ما إستعرضنا كلمات "الله" فى الوحى المنزل نجد أن "الله" عند النصارى هو الحب المتجسد الذى يشترك فيه جميع الناس وأن "الله" عند المسلمين له الأسماء الحسنى التى يبلغ عددها تسعة وتسعين اسماً، وهى أسماء وصفات تتجسد رسالتها الأساسية فى البر والرحمة، ويتجسد أثرها عملياً فى حياة البشر.

وليس المقام مقام استشهادات طويلة وإن كانت التوراة والإنجيل والقرآن الكريم هى كتب مقدسة مليئة بالأستشهادات التى توصى بأعمال البر وتأمر بالتسامح ومد يد العون للآخرين، وهذا أساس التعايش السلمى .

أما فيما يتعلق بنماذج الخدمة الإنسانية التى قام بها النصارى لصالح المسلمين والمسيحيين على السواء، فيمكننا أن نذكر المشروع الذى ولد ونفذ بطريقة فريدة ذلك المشروع الذى يؤكد البابا إنوتشنسو الثالث Innocenzo III أنه يهدف إلى تنفيذ أوامر المسيح (مجال الإيمان) أكثر من كونه يهدف إلى مصالح خاصة (مجال دينى)، إنه الصليب الأحمر الدولى الذى قام على أساس، تقديم الخدمات الإنسانية للجميع .

إن أعمال البر يستفيد منها النصارى والمسلمون على السواء، كما يؤكد البابا

إنوتشنسو الثالث Innocenzo III في خطابه لأبى عبد الله محمد الناصر أمير المؤمنين، وكان هذا الخطاب في ٨ مارس ١١٩٩م الموافق الثامن من جمادى الأولى عام ٥٩٥هـ. ومن الجانب المسلم نجد كثير من ألوان التسامح والرحمة مع العدو المنهزم.

وهناك دراسات أخرى يمكن أن تلقى الضوء على مثل هذه المشروعات للخدمات المجانية التى تعبر عن الإيمان أكثر من تعبيرها عن الديانة، تلك الخدمات التى يستفيد منها النصارى أو "من هم خارج الجماعة". وعلى أية حال فإذا انطلقنا اليوم من نماذج الخدمة المتبادلة، سيكون عندنا من الأسباب القوية ما يكفى لتحديد الخطط العامة لمشروعات متطورة تحقق العدل وتقود إلى السلام والتعايش السلمى .

٦-مناقشة أسباب الرجاء: دروس الماضى.. التاريخ ملهم للحياة أو ملهم للموت

إن المسلمين الذين عاشوا فى زمن الحملات الصليبية لم يلقوا بالاً لظاهرة هذه الحملات العسكرية، فعلى سبيل المثال لم تثر هذه الحروب اهتماماً كبيراً لدى المسلمين فى وقتها . ولكن استفزازات رينو دى شاتيون R. di chatillon فى زمن صلاح الدين الأيوبى هى التى أثارت حفيظة المسلمين الذين فطنوا إلى نوايا النصارى ووطأة تواجدهم الظالم الآثم.

وفى إطار لعبة المشاعر والأحاسيس هذه، حدثت عبر التاريخ تغيرات فى طرق استشعار العدو "المجهول"، إذ إن العدو يعتبر عدواً لأنه غير معروف .

ونحن نتفق مع برنارد لويس B. Lewis، الذى يرى أن نزول نابليون بونابرت بمصر على رأس الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م، اعتبر بمثابة غزو قامت به أمة أوربية "صغيرة" لقلب الإسلام.

وليس ذلك فحسب، بل إن من المسلمين من رأى أن بلداً إسلامياً هو الذى طرد الفرنسيين من مصر على خلاف الواقع الذى يقر للإنجليز بتلك المهمة. وقد نظر المسلمون إلى خضوعهم للأوربيين بوصفه إمبريالية تحاول أن تتحكم فى أراضى

المسلمين وتخضعها.

وما يعنينا فى هذا الصدد هو أن نؤكد على أن المصالح الاقتصادية بالإضافة إلى المصالح الدينية، هى التى تقود الأهداف التوسعية وتوجهها، وأن الدافع الدينى هو دائماً مجرد ذريعة تُخفى المصالح الحقيقية غير المعلنة. نعم إن التاريخ مُعلم للحياة أو مُعلم للموت.

هناك حاجة ملحة إلى من يصنعون السلام من هؤلاء الذين يتميزون بالحس المرهف ويعملون على نشر العدل بين الناس من أجل التعايش السلمى الدائم. إن مسألة التعايش ليست مستحيلة لأن التعايش حدث بالفعل وكان واقعاً مجربًا. إن مجال الخدمات الإنسانية يظل المجال الأكثر إلحاحاً والأكثر قيمة والمطلوب باستمرار، وقد نقل لنا التاريخ نماذج رائعة لهذه الخدمات.

ومما ذكر يتبين أن التعايش السلمى بين المسلمين والنصارى يتطلب تعمقاً فى التفكير المنفتح على الأمل، وهو رهن الإلتزام بالبحث عن هوية فى إطار منظومة القيم والأخلاق ومن خلال خيارات تتسم بالصدق والشفافية.

إن استعادة بعض المبادئ الأخلاقية الأساسية ونشر بعض القيم لتكون أكثر شيوعاً، يمكن أن يمثل فائدة عظيمة للتعايش السلمى بين أوربا والإسلام ؛ لتصل إلى درجة التنافس فى أعمال العدل والبر. و باستعادة الهوية وبتطهير العقيدة من الغلو والتطرف يمكن تجاوز الصدام بين الثقافات والوصول إلى حوار بين الحضارات.

إن الأخلاق بشمولها وتباينها تحقق التكامل بين الشعوب، وإن السلام بدون عدل ليس إلا عنف صامت. إن الأمر يتعلق بخيار وحيد قابل للتحقيق من الناحية الإنسانية ألا وهو إفساح المجال لمن لا ينتمى إلى المجموعة ليتعايش مع أعضاء تلك المجموعة، بدلاً من زرع الألغام ضد الأطفال وضد الرجال وضد النساء، أى ضد الإنسانية.

إن هناك أسباباً لأمل يلزمنا بالعمل من أجله، فهناك قبل كل شئ النتائج المريرة،والمأساوية التى تنجم عن العنف الذى يمارسه البشر فيما بينهم. وهناك أسوأ

أنواع العنف وهو الذى تستتر بالدين منذ آلاف السنين. ومن هنا يجب أن يكون عندنا القناعة بأن امتلاك الإيمان سيعطينا القدرة على استعادة البعد العالمى الشامل للتعايش بين البشر.

إن الإنسان مُصور ومخلوق بشموله وكماله، وكلما عاش بهذا الشمول كلما كان عالمياً، واستطاع أن يستقى من الثراء العالمى. إن النص التوراتى "خلق الله البشر ذكراً وأنثى" يبرز ضرورة الانفتاح على الآخر حتى لا نتلاشى، لأن الذى يعيش وحده حتى لو كان مُحصناً ومدججاً بالسلاح فإنه حتمًا سيموت.

ولا يغيب عنا صورة الديناصورات التى انقرضت وهى تحت دروعها المحصنة؛ لأنها كانت غير قادرة على التبادل والتواصل مع غيرها، وغياب نجم الإمبراطوريات الكبيرة يقودنا إلى التفكير حول ضرورة قبول الآخر الذى يختلف عنا، وهذا الكلام مخاطبٌ به المسلمون والنصارى على السواء. إن التبادل الثقافى يتيح الفرصة لنمو وتحسين الجنس البشرى، كما يظهر لنا من تاريخ اختلاط الأجناس كضرورة لاستعادة الإرادة فى صياغة مستقبل متقدم يقوم على مبادئ الأخلاق الشاملة بعيداً عن الشعار الأحمق "إنهاء العالم بأيدينا لأن ما بعدنا لا يهمنا". إن المخاطرة التى كانت موجودة فى حالة الديناصورات المنقرضة خطيرة مثل مخاطرة الزواج بين الأخوة والأخوات من أبناء الفراعنة والأباطرة، ذلك الزواج الذى أثمر وحوشاً مرعبة. إن الديانة التى تستبعد ديانة أخرى لا يمكن أن تكون ديانة حقيقى وهى وتُعبر على أية حال عن نقص فى الإيمان يفتح المجال لخروج عن النسق الطبيعى مقارنة بالشمولية التى يفرضها الإيمان بالله الذى يحب التسامح ويبغض ضده، والذى يحب جميع مخلوقاته دون تمييز أو تفاضل يتسم بالأنانية.

وفى عصرنا الحالى (٢٠٠١-٢٠٠٤م / ١٤٢٢ - ١٤٢٥هـ) حدثت وقائع خاطئة وظالمة زُجَ فيها "باسم الله" فى حرب شاملة وصفت بأنها حملة صليبية تارة وبأنها جهاد تارة أخرى، وهذا يُلقى على كاهلنا بحق واجب نحو إحياء الأمل". كل ذلك يضاف

إلى الحكمة التى جاءت على لسان "شارل إيمانويل دى لينى De. Ligne الذى يرى أن البشر الذين ينتصرون على بشر آخرين "يتألمون كما يتألم المنهزمون ولا يعرفون أبداً إلى أى مدى هم منتصرون" بينما الله يحب ويرزق كل مخلوقاته بدرجة واحدة من الحب ودون محاباة.

إن الله يبغض عدم التسامح وهذا ما يجب أن يضعه المؤمنون الموحدون فى اعتبارهم، سواء فى العالم الأوربى أم فى العالم الإسلامى. فالله هو التسامح، وعدم التسامح هو ظاهرة بشرية، ومع ذلك فإن أمراً مؤكداً كهذا أصبح عرضة للمخاطرة، رغم أن الأفهام السوية لا تختلف عليه. كما هو الحال فى أن الطيبين ليسوا دائماً فى جانب أو فى مكان واحد، والأشرار فى الجانب الآخر.

وشبيه بذلك مصادفة محل الميلاد التى لا يمكن أن تصير عاملاً لتعزيز طول العمر، لأن الكاثوليكى الذى ولد فى روما لو كان قد ولد بمكة لكان -بطبيعة الحال- مسلماً خالصاً.

كما أن الفوضى والتفرق هو أمر بشرى يرجع إلى مزاعم بشرية محضة تسعى إلى العروج بسلم إلى السماء، وليست تلك الفوضى من صنع الله الذى يحب الخير لمخلوقاته ولا يسخر منهم، ولكن الشر نابع من البشر.

فالتعايش بين النصارى والمسلمين أمر ممكن وقد حدث بالفعل، فالتاريخ ينقل إلينا أن النصارى والمسلمين عاشروا فى إخاء و وئام عندما وضعت الحرب أوزارها. إن "السلام بعد الحرب" يوجب علينا أن نعمل "للسلام قبل الحرب".

لقد حمل لنا الماضى أخباراً أكيدة مفادها أن الحمامات تعايشت مع الصقور والنسور، وأن البشرية مدينة لهذه الحمامات بما قطعته من خطوات حقيقية نحو السلام والتعايش السلمى.

إن تقييم كل إنسان على أساس أعماله الصالحة، يجب أن يقودنا إلى نقل مجال الموازنة، ليس إلى صور وأشكال التدين المتصلة بالضرورة بالعنصر الثقافى، وليس إلى

مجال الاعتقاد والثوابت، بقدر ما هو نقل مجال المقارنة إلى صعيد "أعمال الخير" التى يأمر بها الدين ميزان الإيمان، وأعمال البر تنهل وتستقى من تجربة الخليل إبراهيم فى "تجرده الكامل". إن الأشجار يتم التعرف عليها دون التباس من خلال ثمارها، وليس من خلال أوراقها، حتى بعيداً عن الحديقة التى تنبت فيها.

إن نماذج التعايش قد وصلت إلينا كبشرى واعدة للمستقبل، وإن تعاليم الإنجيل والقرآن تهتف بالنصارى والمسلمين أن "يتنافسوا" فى أعمال الخير، وإقامة العدل كأساس ضرورى للتعايش فى سلام.

وأحرى بنا أن نؤمن بأن مثال الحمامات الذى نقله إلينا التاريخ، كفيل وحده بأن يجعل من حلمنا بأن نرى الإنسانية متوحدة تنعم بتعايش سلمى عميق ولا محدود، حلماً مشروعاً وقابلاً للتحقيق.

* * *